الفصل الأول

العناية بالسنة النبوية العطرة

ويشمل الأبحاث الآتية:

١ ـ جهالة خرقاء وعصبية عمياء.

٢ ـ الفارق بين معجزة الرسول ومعجزة الأنبياء.

٣ ـ صورة رائعة لتعظيم الصحابة للرسول ﷺ.

٤ ـ صفوة القول عن السيرة العطرة.

٥ ـ كلام العلامة ابن الجوزي.

العناية بالسنة النبوية العطرة

لم يحدث في تاريخ البشرية، على مدى العصور والأزمان، أن أمةً من أمم الأرض، اعتنت بعظيم من عظمائها، أو بطلٍ من أبطالها، أو نبيٍّ من أنبيائها، كما اعتنت هذه الأمة المحمدية بنبيِّها محمدٍ ﷺ!

ولم نسمع عن رجلٍ من عظماء الرجال، نال الحفاوة البالغة، والعزَّ والسؤدد، كما ناله سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، وختم ببعثته الرسالات السماوية. فلقد كانت حياته ﷺ مبعثاً للإجلال والإكبار، ومكان اعتزاز وفخار، ليس من المسلمين فحسب، بل ممن لا يدين بدينه، من أبناء الغرب، حيث جعلوا الرسول ﷺ في أول شخصية من عظماء الدنيا، حين كتبوا عن مائة رجل من المصلحين العظماء، وجعلوا سيد الأنبياء في مقدمتهم، بل أوَّلَ هؤلاء الرجال العظماء، الذين أحدثوا انقلاباً في الإنسانية. ولا عجب في ذلك، فهو عليه الصلاة والسلام بحقٍّ مفخرة الدنيا، وزينة الوجود، حيث نقل أمة العرب من رعاية الغنم، إلى قيادة الأمم، وسجَّل في التاريخ أنصع صفحات المجد والكمال، وأرسى قواعد العدل والمحبة، وأخرج الناس من ظلمات الجهل والضلالة، إلى نور العلم والعرفان، كما وصفه ربه بقوله جلَّ شأنه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

وجدير بمن اختاره الله عز وجل، ليختم به رسالات الأنبياء، والمرسلين، أن ينال هذا الشرف والسؤدد، وأن يحظى بتلك المرتبة السامية، التي لم ينلها أحد قبله ولا بعده، فيكون له بين أمم الأرض، مكان القيادة والريادة، وذلك لما أحدثه من

انقلابٍ في الكون بأسره، إذ أحيا الله به أمماً، كانت في حكم الموات، تعيش في غياهب الظلم والجهل، والتشتت والتمزق، والسَّفه والضلال المبين، فأنقذها الله بمبعثه الشريف، وجعل بعثته «المنَّة العظمى» على عباده المؤمنين، حيث يقول تقدست أسماؤه:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

جهالة خرقاء وعصبية عمياء:

نعم لقد كان الناس في ضلال مبين، وجاهلية جهلاء، وعصبية عمياء، وبُعْدٍ عن نور الحق والهداية، وأيُّ ضلال أعظم من أن ينحت إنسان حجراً بيديه، ثم يعبده ويتذلل إليه؟!، ويفخر أهل الجاهلية بعبادة هذه الأحجار، ويعتبرونها آلهة تُقصد وتُعبد من دون الله، بل كان مفخرتهم أنهم سدنة الأوثان والأصنام، وكان كبار الزعماء وفحول الصناديد يحجون إلى هذه الأوثان، ويضعون رؤوسهم التي تحمل عقولهم، تحت أرجل هذه الأوثان، ويا لها من قباحةٍ وسفاهة!!

وأيُّ سفهٍ أعظم، من أن يقدم الواحد منهم، على قتل ولده، فلذة كبده، فيدسُّ ابنته في التراب، خشية الفقر، أو خوفاً من العار، لا لذنبٍ جنته، وإنما لأنها أنثى!!

ولولا أن القرآن حدثنا بذلك، لما كان الواحد منَّا يُصدِّق أن يحصل مثل هذا السَّفه والطغيان، واستمع إلى القرآن، وهو يحدثنا ويقرِّر هذا العدوان الغاشم، والجهل القاتم، الذي كان عليه أجدادنا العرب ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩].

أيُّ وحشيةٍ بلغت إلى هذه الدرجة، من القسوة والغلظة، أن يقدم الرجل على قتل أولاده، فيدفنهم أحياء في التراب، ليغسل عنه العار؟

قال ابن عباس: إذا سرَّكَ أن تعرف ما كان عليه العرب من السفه والجهل فاقرأ هذه الآيات من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠][1].

إنها والله مِنَّةٌ وأيُّ منَّة، أن يبعث الله للبشرية، من ينقذها من ظلمات الشرك والوثنية، ويجعل من هذه الأمة الجاهلية، خير أمة أخرجت للناس، وبذلك تمت نعمة الله على أهل الأرض ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

لقد كان ميلاد محمد ﷺ ميلاداً للإنسانية، وإعلاناً للفضيلة، وإعلاءً للحق، وانتصاراً للهدى والنور في وجه الظلام.

وكان انبثاق فجر الرسالة المحمدية، نهاية الطغيان، وانتهاء عصر الظلام، وإشراق نور الإسلام، وطلوع شمس الإيمان!

ولهذا سماه الله سراجاً منيراً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

الفارق بين معجزة الرسول ومعجزات الأنبياء:

ولئن كانت معجزة عيسى عليه السلام، إحياء ميِّت، وشفاء عليل، وإبراء أعمى، فإن معجزة محمد عليه الصلاة والسلام، أعظم وأكبر، هي إحياء أمم وأجيال، وشفاء عللٍ وأمراض، نفسية واجتماعية، دونها أمراض الأجساد، وإبراء عُمْي القلوب دونها عَمَى الأبصار.

وصدق الله العظيم حيث يقول في محكم آياته البينات:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

لقد بلغ النبي عليه الصلاة والسلام في سموه الروحي، أسمى مراتب

---

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٦٤٢.

الكمالات، كما قال سيد الأنبياء: «**إنما أنا رحمة مهداة**».

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

إننا أمام الحقيقة المحمدية، أمام الفضل، والنُّبْلِ، والطُّهر، والخُلُق، والعظمة، والكرامة.

أما الحقيقةُ المحمدية، فإنما يعلم أسرارها، وما انطوت عليه من إنسانية وسعت الإنسانية كلَّها، من أبدعها خير إبداع، وأنشأها خير إنشاء، ذلكم هو ربُّ محمد، ربُّ العزّة والجلال.

ذلك هو الذي اختصَّ بمعرفة «سيد العالم» محمد بن عبد الله، لأنه كوَّنه على ما أحبَّ، ونشَّأه كما أراد، وصيَّره بشراً، وبعثه رسولاً، وجعله رحمةً للعالمين.

فمبلـغُ العِلْـمِ فيـهِ أَنَّـهُ بَشَـرٌ وأَنَّـهُ خَيْـرُ خَلْـقِ الله كلِّهـم

هذا النبي الرحيم، هو الذي أحبته القلوب قبل الأبصار، وشدت بذكره الحمائم والأطيار، فكان بهجة الدنيا، وزينة الوجود، ولذلك لا نعجبُ، إذا رأينا أصحابه الكرام، يقتتلون على فضل وضوئه، وحيازة بعض شعرات من شَعْره الشريف، ويَفْدُونه بالروح، والنفس والولد!!

صورة رائعة لتعظيم الصحابة للرسول الكريم:

يروي لنا الإمام البخاري في صحيحه، أن قريشاً أرسلت داهيةً من دهاتها، وعظيماً من عظمائها، هو «عُروة بن مسعود» وذلك عام «صلح الحديبية» فأتاه فكلَّمه في أمر الصلح، فقال له النبي ﷺ: «**إنّا لم نجيء لقتال أحد، ولكنّا جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتهم ـ أي أضعفتهم ـ الحرب، وأضرَّت بهم، فإن شاءوا صالحتهم، ويُخَلّوا بيني وبين الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهر عليهم فإن شاءوا دخلوا في الإسلام، وإن هم أبوْا، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنّهم على أمري حتى تنفرد سالفتي ـ أي صفحة عنقي ـ ولينفذنَّ الله أمره**»!

وجاء في الرواية أن عروة جعل يرمق ـ أي يلحظ ـ أصحاب النبي ﷺ بعينيه، فرأى العَجَب العُجَابَ؛ قال عروة:

«فوالله ما تنخَّم ـ أي بصق ـ رسول الله ﷺ نخامةً فوقعت على الأرض، إلا وقعت في كفِّ رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ اقتتلوا على وضوئه، وإذا تكلّموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له ﷺ.

فرجع عروة إلى أصحابه فقال: يا قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة، والله ما رأيت مليكاً قطّ يعظمه أصحابه. كما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً، والله ما يتنخم نخامةً إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمره ـ أي أسرعوا إلى فعله ـ وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلَّموا في حضرته خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عَرَض عليكم خُطَّةَ رُشْد فاقبلوها. . .»[1] الحديث.

هذه شهادة كبير من عظماء قريش، يحكي ما رآه من تعظيم الصحابة لرسول الله ﷺ **«والفضلُ ما شهدتْ به الأعداء»!!**

صفوة القول عن السيرة العطرة:

هذه نبذة يسيرة، عن صاحب الرسالة العطرة «محمد بن عبد الله» ﷺ، سقناها في مقدمة الحديث عن «السنة النبوية المطهرة» ليعرف كل قارىء، وكلُّ سامع، كيف كان صحابة رسول الله ﷺ يعظِّمون الرسول ويجلُّونه، ويفدونه بأرواحهم، وأبنائهم، وأموالهم، ولذلك كان اهتمامهم بأقواله وأفعاله، وأحاديثه الشريفة، وحفظ كلِّ ما ورد عنه، يفوق كل الأمور، لأنه الأسوة والقدوة للمؤمنين، فلم يُنْقل

---

(١) هذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري ٥/٣٢٩ من فتح الباري، باب الشروط والمصالحة مع أهل الحرب.

عن عظيم من العظماء، أو نبيٍّ من الأنبياء، ما نُقل عن سيد المرسلين من أقواله، وأفعاله، وحركاته، وسكناته، بدقة فائقة، تفوق التصور والخيال، ولا سيما بعد أن سمعوا ترغيبه ﷺ لحفظ حديثه، وضبطه، وتبليغه للناس، في قوله ﷺ: «**نضَّر الله امرءاً سمع منَّا حديثاً، فحفظه حتى يبلِّغه غيره، فربَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقهٍ ليس بفقيه**»[1].

كما سمعوا منه حفز هممهم، إلى تبليغ العلم للناس في قوله عليه الصلاة والسلام: «**بلِّغوا عنِّي ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[2] فصحابة رسول الله رضوان الله عليهم، وعلماؤنا المتقدمون، نقلوا لنا هذا الدين وعلومه، بضبطٍ وإتقان، يُضاهي أشرطة التسجيل اليوم «الكاسيت» حتى ما يغيب عنهم شيء من أحوال النبي ﷺ، أو أقواله، وأفعاله، إلا ورَوَوْه لنا بدقَّة فائقة، وأدَّوْا الأمانة العلمية على خير وجوه الأداء، فجزاهم الله عن العلم والإسلام والمسلمين خير الجزاء.

كلام العلامة ابن الجوزي:

وأنا أنقل هنا ما قاله الإمام البارع المتقن «ابن الجوزي» ـ رحمه الله ـ مشيراً إلى ما خُصَّت به هذه الأمة المحمدية، في كتابه اللطيف «الحثُّ على حفظ العلم وذكرُ كبار الحفاظ» حيث قال فيه ما نصُّه:

«أمَّا بعدُ، فإن الله عزَّ وجلَّ خصَّ أمتنا، بحفظ القرآن والعلم، وقد كان مَنْ قبلَنا، يقرأون كتبهم من الصُّحُف، ولا يقدرون على الحفظ، فلما جاء «عُزَيْر» فقرأ التوراة من حفظه، قالوا: هذا ابن الله.

فكيف نقومُ ـ نحن معشر المسلمين ـ بشكر من خَوَّلَنا أنَّ ابنَ سبع سنين منَّا، يقرأ القرآن عن ظهر قلب.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم ٢٦٥٨ في العلم، وأبو داود رقم ٣٦٦٠.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٦/ ٣٦١ والترمذي في العلم رقم ٢٦٧١.

ثم ليس في الأمم، ممن يَنقُل عن نبيِّه، أقواله وأفعاله، على وجهٍ يحصل به الثقة إلاَّ نحن، فإنه يروي الحديثَ منَّا خالفٌ عن سالف ـ أي متأخرٌ عن متقدِّم ـ وينظرون في ثقة الراوي، إلى أن يصل الأمر إلى رسول الله ، وسائر الأمم يروون ما يذكرونه عن صحيفةٍ، لا يُدْرى من كتبها، ولا يُعْرف من نَقَلَها!!

وهذه المنحةُ العظيمةُ نفتقر إلى حفظها، وحِفْظُها بدوام الدراسة ليبقى المحفوظ، وقد كان خلق كثيرٌ من سلفنا، يحفظون الكثير من العلم، فآل الأمرُ إلى أقوامٍ يَفرُّون من الإعادة ميلاً إلى الكسل، فإذا احتاج أحدهم إلى محفوظ لم يقدر عليه»[1] انتهى.

أقول: كان العلم يؤخذ في القديم عن الشيوخ، من أفواههم، ومن الجُثِيِّ على الركب بين أيديهم، فأصبح اليوم يؤخذ من الكتب، ولهذا ضَعُفَ العلمُ، وقلَّ الضبط والفهمُ، وظهر الخطأ والخللُ، وأصبح من لا يُفرق بين الحَمَل والجَمَل، وبين البُرِّ والدُّر، إماماً مجتهداً، يلقي بالقول على عواهنه، ويعللكُ بين أضراسه هذه المقالة: هم رجالٌ ونحن رجال!! ولله درُّ الحافظ ابن عساكر، حيث يقول هذه الروائع من الأبيات:

ألاَ إنَّ الحديثَ أجلُّ علمٍ ... وأشرفُه الأحاديث العوالي
وأنفعُ كلِّ نوعٍ منه عندي ... وأحسنهُ الفوائد والأمالي
وإنك لن ترى للعلم شيئاً ... يُحقِّقه كأفواه الرجالِ
فكنْ يا صاح ذا حِرْصٍ عليه ... وخُذه عن الرجال بلا مَلاَلِ
ولا تأخذْهُ من صُحُفٍ فتُرمى ... من التصحيف بالداء العُضالَ[2]

---

(١) من كتاب «الحث على حفظ العلم» لابن الجوزي، نقلاً عن كتاب «صفحة مشرفة من تاريخ سماع الحديث عن المحدِّثين» لشيخنا الجليل الأديب، العلامة الشيخ عبد الفتاح أبي غدة صفحة٤٨.

(٢) كتاب الوفيات لابن خلكان ٣/ ٣١٠ نقلاً عن المرجع السابق.